

الأزمات الثقافية في العالم الإسلامي من منظور مالك بن نبي.

د. فاطمة بور

جامعة بومرداس - الجزائر

الملخص:

إن مالك بن نبي من المفكرين الجزائريين الذين حملوا هموم العالم الإسلامي فبحثوا عن أسباب تخلفه وخروجه من ركب الحضارة، فرأى أن من أهم الأسباب التي حالت دون محافظة المسلمين على تقدمهم الأمراض الثقافية التي ورثها الإنسان المسلم عن عصر ما بعد الموحدين، فمالك بن نبي عمل على تشخيص تلك الأمراض والبحث عن الحلول التي تقضي على التعالي والذاتية التي جعلت من المسلم يعيش في قوقعة الماضي الذي لا يكاد يبرحه والنظر إلى المستقبل الذي يضمن له مواكبة العصر بما تطلبه المرحلة.

Abstract:

Malik bin Nabi one of the Algerian intellectuals who took up the concerns of the Muslim world and search about the reasons for the failure of the Muslim world that drove it out of civilization race , the most important reasons that have prevented the Muslims from maintaining their progress was the cultural diseases that human Muslim inherited from the era of post-monotheists , Malik bin Nabi work on the diagnosis of these diseases and the search for solutions that eliminate the self-transcendence and that made the Muslim live in the shell of past which is hardly leave to look at the future which guarantees keeping with requests of the era.

مقدمة:

في عصر الموحدين وقعت الأمة الإسلامية في أزمة حضارية خانقة مست حياتها الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وزادت معاناتها في العصر الحديث بتعرض كافة الشعوب العربية الإسلامية تقريبا للغزو الاستعماري الفكري والثقافي والعسكري الأوربي. الذي بذل كل ما في وسعه لطمس الشخصية العربية الإسلامية وسخر لذلك كل القوة المادية والمعنوية، فزاد العالم الإسلامي ضعفا وانحطاطا، وفي ظل هذه الظروف المستعصية شهد العالم الإسلامي محاولات كثيرة قام بها العديد من المفكرين ورجال الإصلاح، هدفت جميعها إلى الكشف عن أسباب هذا التخلف والانحطاط والبحث عن السبل للخروج منه، ومن أهم هؤلاء المفكرين الجزائريين "مالك بن نبي" الذي سخر حياته لخدمة القضايا الإنسانية العادلة في العالم، بدء بالقضية الجزائرية إلى القضايا القومية والإسلامية وانتهاء بمعضلات العالم الثالث.

ومن أهم القضايا التي شغلت مالك بن نبي الأمراض الثقافية التي تولدت عن عصر الضعف ووقفت حاجزا منيعا يصد أي مشروع نهضوي في الأمة الإسلامية ومن هنا نتساءل:

- ما هي أهم الأمراض الثقافية التي ورثها العالم الإسلامي من عصر ما بعد الموحدين؟؟

- وكيف نتخلص منها لضمان الإقلاع الحضاري؟؟.

لقد عاش مالك بن نبي فترة طويلة في مساس مع المجتمع الأوربي، وعانى من التهميش والتضييق مما جعله يخبر البنية الفكرية التي تميز هذا المجتمع، وهذا ما دفعه للعودة إلى الوطن والانشغال بدراسة أسباب تخلف المسلمين، وقد وقف مالك بن نبي على عدة أمراض تنخر في جسد الأمة الإسلامية وحالت دون خروجها من المستنقع الأسن الذي أراد الاستعمار أن تبقى رهينته ليضمن الهيمنة عليها ماديا ومعنويا، ومن أهم هذه الأمراض نذكر:

1- نزعة التسامي والتعالي:

من المشاكل التي يعاني منها المجتمع الإسلامي نزعة الكمال التي تولدت عن مركب النقص الذي توارثته الأجيال أبا عن جد، ذلك بما خلفه الاستعمار في نفسية الشعوب من إحساس بالدونية، هذا ما جعل ردّ فعل معاكس ينتج عند الناشئة وهو التغني بأجداد الماضي وأعمال السلف كلها تعلق الأمر بحال حضارتنا وواقع مجتمعاتنا، فالذات العربية بشكل عام تسلك مسلكا سحريا يتمثل في النكوص إلى الوراء، عن طريق امتداح كل الماضي وفق أدب الفخر وذكر مناقب السلف والخطاب الرومنسي الحالم، وبدلا من أن يثمر العمل ويخلق في الذات الرغبة القوية في التقدم نحو النموذج الغالب، خلق مرضا نفسيا تمثل في التعالي الذي يعكس أزمة تجلت في سلوك اضطرابي مفعم بالهيجان العاطفي المدمر، ومن أبرز نتائج تعدد النكسات والهزائم المتكررة، فعقدة التسامي هي إحدى العوائق والأمراض الثقافية التي جعلت العقل العربي والإسلامي عاجزا عن فهم مشكلاته الحقيقية، وهذا ما ذهب إليه عبد اللطيف عبادة حين قال: "إن استخدام نزعة المديح وأدب الفخر والتمجيد كوسيلة للتغلب على مركب النقص الذي اعترانا إزاء سلطان الثقافة الغربية، واضح أنهما وسيلته للتخدير والتسليّة، تعزل الفكر والضمير عن الشعور بالمتاعب الحقيقية"⁽¹⁾

وهذا نفسه ما ذهب إليه مالك بن نبي في قوله: "فحين اتجهت الثقافة إلى امتداح الماضي أصبحت ثقافة أثرية، لا يتجه العمل الفكري فيها إلى الأمام بل ينكص إلى الوراء، وكان هذا الاتجاه الناكص المسرف سببا في انطباع التعليم كله بطابع دارس لا يتفق ومقتضيات الحاضر والمستقبل، وبذلك أصيبت الأفكار بظاهرة التشبث بالماضي كأنها قد أصبحت متنفسا"⁽²⁾. فهذه العقلية ولدت مرضا آخر وهو مرض الشعور بالكمال، فظهرت عقلية نحن مسلمون إذن نحن كاملون.

وهذا المرض بالنسبة لمالك بن نبي يفتك بكل بصيص أمل لتغيير أحوالنا، فبينما يبحث المجتمع الغربي عن شروط النهضة والتقدم ويقتبس من الإسلام ما يساعده على ذلك- طبعا دون أن يعترف بذلك- نجد أنفسنا أمام واقع مجتمع إسلامي غارق في حكايات الماضي وسرد تاريخ الآباء والأجداد، لكن هذا لا يعني أن مالك بن نبي قد كان معاديا للأصالة، بل بالعكس كان معترفا بامتائه العربي الإسلامي، لكنه سعى إلى أن يعرف المسلم ثقافته معرفة حقيقية، وأن يعود إلى أصوله وجذوره العقدية والفكرية والأخلاقية ويسعى إلى تحويل اعتزازه النظري والعاطفي إلى سلوك عملي، وإلا أصبح هذا الاعتزاز ظاهرة مرضية إذا ما ظل مجرد كلام يردد وشعارات ترفع، وصيحات تتعالى لسرد الأجداد وتعظيم الأجداد.

إن قراءة التراث والاعتزاز به يكون عودة للوراء للاندفاع أقوى للأمام، نأخذ من تجارب الأوليين وأرهاساتهم، ونبني المستقبل بسواعدنا، لأن لكل عصر رجاله ولكل عهد مقتضياته، ومن الوهم أن تعتقد جماعة أنها تستطيع أن تندمج في الحضارة من دون أن تحيي تراثها، إما بالتغاضي أو بالتخلي عنه، فالنتيجة لن تكون إلا انتقاما أكبر للماضي من الحاضر وتهديدا أعظم لأي جهد تجديدي، أما أنه من الوهم أن تعتقد جماعة أيضا أن تراثها بمفرده- مهما كانت عظمته - يمكن أن يحفظ لها استقلالها وحريتها ونجاحها التاريخية⁽³⁰⁾

إذا فصير الأمم مرهون بمقدرتها على أن تجعل من تراثها وثمرتها أجيالها الماضية وتراكماتها رأس مال قابل للتوظيف في عمليات التجديد والتحضّر الكبرى.

"فن السهل استيراد الآلات والأجهزة والمنتجات المادية وغير المادية، لكن ليس من السهل ولا من الممكن استيراد الفاعلية الثقافية، لأن الثقافة هي التعبير الأساسي عن وجود الجماعة كجماعة موحدة، والشرط الأساسي لتحقيق استمرارها وتميزها وتاريخها أي إعطائها ذاتية مستقلة"⁽⁴⁾.

فالثقافة هي صانعة الهوية والأمة، واستقلالية الأمة مرهون باستقلالية الثقافة، والتعامل مع الحاضر يكون بمد الخيوط للماضي وربطها بالمستقبل، والتعامل بالمنطق مع الأحداث الراهنة، ومحاولة تفادي أخطاء الماضي واستثمار جهود الأولين ومحاولة بلورتها بما يناسب مقتضيات الأزمنة التي نعيشها، ويجب ألا تتعامل مع الأوضاع كالأعمى للهروب من مشاكلنا الكثيرة.

2- داء اللفظية.

عندما يعجز العقل عن التفكير والإبداع يتجه السلوك العام للإنسان إلى مواطن القداسة وأهمها اللغة، وتصبح الألفاظ معيار الكمال وتتمام التعليم، واللفظية في أمتنا جعلت المثقف والفقير يرى كماله في لسانه، فيسعى للبحث عن الشهرة ويصبح الهوس بالكمال كالهوس بالخدّر، ويزيد الأمر تعقيدا حينما ينفصل القول عن العمل، فيصبح الكلام قاتلا لصاحبه وهو لا يدري، يقول مالك بن نبي: "وهنا يؤدي بنا المقام إلى الحديث عن الحرفية، فلقد أبدعت العبقريّة العربيّة أجمل لغات العالم، ولكن هذه العبقريّة كانت في موقفها مما أبدعت كالمثال الذي هام بتمثاله، وقد أبدع مناقشه، والغرام بالكلمات أخطر من الغرام بالمعدن أو الرخام أو الحجر، فهو يؤدي أولا وقبل كل شيء إلى أن يفقد الإنسان حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح، وهو أمر ضروري لكل جهد إيجابي من أجل البناء"⁽⁵⁾.

وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إنكم في زمان كثير علماءه قليل خطبائه، وسيأتي بعدكم زمان قليل علماءه كثير خطبائه، فمن كثر علمه وقل قوله فهو الممدوح، ومن كان بالعكس، فهو مذموم"⁽⁶⁾.

فالتنمق في الكلمات، واحتراف الخطابة من الأئمة والسياسيين والنقابين والمسؤولين يجعل الناس يفتنون ببريق الكلام والوعود، إلا أنهم سرعان ما يصطدمون بواقع يتناقض تماما وفحوى

هذه الخطابات، "فالغرام بالكلمات يفقد الإنسان فاعليته وتصبح هناك فجوة بين الكلام والعمل"⁽⁷⁾. وهذه الاحترافية تخلق مرضاً آخر لا يقل خطورة عن داء اللفظية، وهو احتراف الثقافة ومعناه أن تتحول الثقافة من رسالة حضارية إلى وسيلة لاكتساب الخبز، وعليه تصبح مجرد حرفة أو مهنة، ومرض الحرفية يتسم بمظاهر سلبية تفرزها الذات المهزومة وتظهر في سلوك "التعالّم"، والذي نلاحظه في شتى نواحي الحياة العامة والخاصة، فإنسان ما بعد الموحدين ما إن يتعلم حروفاً حتى يخال نفسه صار عالماً ومفكراً، والصعوبة تكمن في انعكاس هذا البلاء على التربية والتعليم، وعلى الرأي العام من خلال وسائل الإعلام، وعلى الدين من خلال الإمام المتعالّم، يقول مالك بن نبي: "والحقيقة أن منذ نحسين عاماً نعرف مرضاً واحداً يمكن علاجه هو الجهل والأمية، ولكننا اليوم أصبحنا نرى مرضاً مستعصياً هو التعالّم، وإن شئت فقل الحرفية في التعلم، والصعوبة كل الصعوبة في مداواته وهكذا أتيح لجيلنا أن يشهد خلال النصف الأخير من هذا القرن ظهور نموذجين من الأفراد في مجتمعنا، حامل المرقعات ذي الأطمار البالية وحامل اللافتات العلمية"⁽⁸⁾.

وفي بلد كالجزائر لا نستطيع أن نميز بين العالم والمتعالّم ولا بين السياسي الحق والبوليتيكي المغامر ولا بين الفقيه والدخيل، ذلك أن أغلب الشعب في لحظة صار متعالماً أو سياسياً أو نقابياً، وأدنى درجات التقمص تمثلت في الفقيه المفتي، الذي لا يتوانى أن يحلل ويحرم ويطلق الأحكام الدينية في أي قضية تطرح عليه، وإن كانت تمس دماء المسلمين وأعراضهم، وهذا المرض تزداد شدته كلما تطورت وسائل الاتصال بين الأفراد والشعوب، لأن مثل هذا المريض يبث سمومه وأفكاره التي نسجها من خيوط خياله إلى أجيال لا تفقه من الدين شيئاً، إذا ما يربطها بالإسلام كما قال مالك بن نبي هي شهادة الميلاد، لكنه يحمل في داخله هوية مشوشة لا تمت للإسلام بأي صلة، فتكون بذلك عرضة لتلقي أي أفكار وتبنيها في ممارساتها ظناً منها أنها الأفكار الصحيحة. وذلك كله يعود على الأمة بخطور أشد وقعا من خطر أعداء الإسلام، لأن ما

يهدد الإسلام في هذه الحالة هو المسلم في حد ذاته، فتظهر الفتن ويختلط كما يقال الحابل بالنابل فلا تكاد تفقه الظالم من المظلوم ولا المعتدي من المعتدى عليه، وما نلاحظه من إجرام في بلداننا العربية الإسلامية، أو ما اصطلح تسميته بالإرهاب إلا نتيجة حتمية لهذه الاحترافية، فحين تحترف السياسة وتمنح المسؤوليات لغير أهلها، تكثر الاحتقانات ويشيع الفساد والاختلاس، وحين يحمل مسؤولية الإصلاح في المساجد والمعاهد الدينية من ليس كفاً لذلك تشيع الخرافات ويصبح الاهتمام بالكليات والثنائيات على حساب الأمور المهمة المستعصية، فعوض البحث عن مشاكلنا الثقافية والحضارية ومحاولة إيجاد حلول لها، نصبح نهم بسفاسف الأمور وتخصيص حلقات لها في المنابر وصفحات لها في الصحف والكتب، ويكون ذلك هدراً للوقت وتضييعاً للمال بلا فائدة، بل بالعكس فهو يهدم أكثر مما يبني.

3- تحليل العلاقات الاجتماعية:

وهذه الأمراض حين تنخر في مجتمع ما فإنها تهدد كيانه بالفساد وتقوض معالمه المتمثلة في جهاز الدولة وشبكة العلاقات الاجتماعية، فإننا إذا عدنا للمجتمع المسلم في بدايته نجد أن "أول عمل قام به المجتمع الإسلامي هو الميثاق الذي يربط بين الأنصار والمهاجرين، وكانت الهجرة نقطة البداية في التاريخ الإسلامي، لا لأنها تنفق مع عمل شخصي قام به النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن لأنها تنفق مع أول عمل قام به المجتمع الإسلامي، أي مع تكوين شبكة علاقاته الاجتماعية، حتى قبل أن تتكون تكونوا واضحاً"⁽⁹⁾.

فالإسلام سعى دائماً لأن يكون المسلمون أمة واحدة، تربطهم أواصر المحبة والأخوة والإيثار، فلا يكتمل إيمان المسلم حتى يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه، لأن قوة الأمة تنبع من شعور الإنسان أنه شخص من مجموعة، فيعمل على بقائها وتطورها، لكن إذا تحللت هذه العلاقات، أصبح المجتمع في موقف يهدد فيه بالانحيار، وهذا ما أشار إليه ونبأ به النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف: "يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها،

قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: لا، بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزع الله من صدور أعدائكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن، قيل: "وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت".⁽¹⁰⁾

فالرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث استحضر صورة العالم الإسلامي بعد أن تتمزق شبكة علاقاته الاجتماعية أي عندما لا يعود مجتمعا، بل مجرد تجمعات لا هدف لها ولا طموح ولا مصالح مشتركة، فهي كغثاء السيل.

فمالك بن نبي يرى أن أول عمل "في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغير الفرد من كونه فرداً «Individu» إلى أن يصبح شخصا «Personne» وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع"⁽¹¹⁾.

الفرد الذي يعمل في نطاق ذاتي لا يمكنه أن يصنع حضارة، لكن الشخص الذي يعمل في إطار مجموعة، كلما كانت الشبكة الاجتماعية أوثق، كلما كان العمل فعالا مؤثرا في هذا المجتمع، بينما إذا تحللت هذه العلاقات يصبح المجتمع عاجزا تماما عن أداء نشاطه المشترك، فيتوقف عن أن يكون مجتمعا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة.

"فشبكة العلاقات الاجتماعية هي التي تؤمن بقاء المجتمع، وتحفظ له شخصية، وأنها هي التي تنظم طاقته الحيوية لتتيح له أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ"⁽¹²⁾. ولم يتوان مالك بن نبي عن ذكر دور المستعمر في حل الشبكات الاجتماعية للشعوب المستعمرة طبعا لكي يتسنى له السيطرة عليها بسهولة، فالاستعمار لا تكمن خطورته في الهدم والتخريب واشعال نار الحرب بالدبابة والمدفع، بل ما هو أخطر من ذلك حين يعمل على تحطيم علاقات المجتمع "ولسنا نستطيع، بكل أسف وبتأثير أوضاعنا العقلية، أن نفهم عمل الاستعمار إلاّ ريثما يثير ضجيجا،

كضجيج الدبابة والمدافع والطائرة، أما حين يكون من تدبير فنان، أو من عمل قارض فإنه يغيب عن وعينا لسبب واحد هو أنه لا يثير ضجيجا" (13).

وأخطر أساليب الاستعمار التي زرعها في المجتمعات العربية ، فكرة المستحيل التي أصبحت وكأنها نظارة سوداء يرتديها أفراد المجتمع، فتجد شرائح المجتمع باختلافها لا تكاد ترى في الواقع الذي نعيشه إلا الكآبة والنقص والضعف والإحباط، لأننا صورنا في أفكارنا هذا الواقع الذي أملاه علينا الاستعمار، لكي يضمن أن نبقي في مستنقع راكد من الأفكار المدمرة والمحبطة لكل جهد قبل أن نحاول القيام به حتى "ولسوف تلاحظ أن الرجل يطلق (الواقع) لا على ما يراه مثلك بعينه، بل على ما يفكر فيه دون الرجوع لأي مقياس من التاريخ أو الاجتماع، فتكوينه العقلي يمنعه من أن يرى ما هو أمام عينيه بلحمه وعظمه، كما أن هذا التكوين هو الذي يمنع الموظف الكبير في الإدارة من أن يدرك الفرق الضروري بين تفاهة الموظف وضروريات الوظيفة" (14).

وقد شبه مالك بن نبي هذه الأفكار التي يبيتها الاستعمار عبر وسائل الإعلام بحبات الرمل التي تكفي حبة واحدة لإيقاف محرك، إذا ما تسربت إلى أحد أجهزته، فهذا شأن علاقاتنا الاجتماعية في الأوطان العربية والإسلامية، لا نكاد نستيقظ في اليوم التالي حتى نجد عنصراً من عناصر التفرقة بين الشعوب، التي تزيد في الهوة اتساعاً، مما ينذر بالتمزق في تلك العلاقات، بل والأخطر من ذلك أن هذا التمزق أصبح يهدد أفراد العائلة الواحدة بل حتى الأسرة الواحدة، فأصبح الناس ينفرون من بعض العادات التي كانت سبباً في الالتقاء والاجتماع، مرة بدعوى انحرافات ومرة بدعوى الواقع الذي أصبح لا يرحم، فتفككت العلاقات بين الأهل والجيران والأنساب، حتى أصبح المرء لا يعرف حال أهله في الحي، ويخلق لذلك ألف عذر وعذر.

بينما نجد الإسلام يسعى جاهدا لجمع شمل الأمة، وما فريضة يوم الجمعة إلا مثال واضح لذلك الاجتماع الأسبوعي، الذي لا بد لكل مسلم أن يشهده، إضافة إلى الاجتماع الأكبر المتمثل في الحج، الذي تتسع فيه العلاقات لتشمل البلدان الإسلامية بأكملها دون أن تنسى العيدين اللذان هما مناسبة لتجديد العلاقات الاجتماعية كل ذلك كفيل بأن يظهر ضرورة علاقة المسلم بأخيه المسلم.

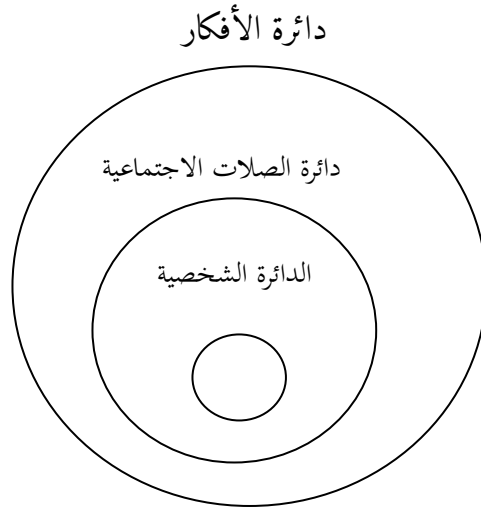
"وجميع القوانين التي أملتها السماء، أو وضعتها محاولات البشر، هي في حقيقة الأمر إجراءات دفاعية لحماية شبكة العلاقات الاجتماعية، وبدونها لا تستطيع الحياة الإنسانية أن تستمر، لا أخلاقيا ولا ماديا"⁽¹⁵⁾.

وهذا ما كفله الإسلام بتوسيع درجة العلاقة الإنسانية، حيث نظم حقوق وواجبات غير المسلم في المجتمع المسلم، حتى يضمن العلاقات الإنسانية في كل مجالات الحياة، هذه العلاقات التي يضمن بها كل إنسان أن يكون شخفا في مكان واسع جداً وهو المجتمع الإنساني، فالتربية الاجتماعية هي الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذا الحد من العلاقات الوثيقة والمنظمة "إذ ليس الهدف منها أن نعلم الناس أن يقولوا أو يكتبوا أشياء جميلة، ولكن الهدف أن نعلم كل فرد فن الحياة مع زملائه... أن نعلمه كيف يتحضر"⁽¹⁶⁾. وهي "وسيلة فعالة لتغيير الإنسان، وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه وكيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شرائط الوجود نحو الأحسن دائماً. وكيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ."⁽¹⁷⁾

وبذلك يمكن لنا الوصول لأن نعيش في ظل الحكمة القائلة: "الفرد للمجتمع والمجتمع للفرد"⁽¹⁸⁾.

وهذا ما يعبر عن شبكة العلاقات الاجتماعية في أرقى صورها وفي أقصى فاعليتها.

ويرى مالك بن نبي أن واقعة صفين فصمت الوحدة الشاملة التي بناها محمد صلى الله عليه وسلم بأمر من الله، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعي جيدا تأثير الوحدة الاجتماعية على أفكار المسلمين ووحدهم التاريخية، وهذا ما بينه مالك بن نبي عن طريق المخطط التالي:⁽¹⁹⁾



فيشرح المخطط قائلا: "إننا نرى أولا، أن كل ما يصدر من إشعاع من الدائرة الشخصية الخاصة بفرد معين يصب حتما بخيره أو بشره في دائرة أفكاره، لأنه ينعكس عليها بمقتضى تداخل الدائرتين، بمعنى أي تعفن أخلاقي يحدث داخل الدائرة الشخصية يصل إشعاعه فوراً - بصفته تعفنا- إلى دائرة الأفكار.

وبالآلية نفسها، فإن كل ما يحدث من خير أو شر، على الدائرة الاجتماعية يحدث أثرا إلى الخارج، تجاه دائرة الأفكار وينعكس عليها أيضا.

ولكن يجب أن نلاحظ أن نصيب الإشعاع الذي يرد من الدائرة الاجتماعية تجاه داخل، ينعكس على الدائرة الشخصية ثم يعود منها، كإشعاع منعكس إلى دائرة الأفكار ليلقي

عليها ما يحمل وما حمل من الدوافع الهرمانية، حتى إن دائرة الأفكار تتلقى في النهاية، كل ما تشعه الدائرة الاجتماعية في الاتجاهين وبالتالي فإن كل ما يحدث بطريقة طبيعية أو صناعية، تعفنا بالدائرة الشخصية الخاصة بفرد أو في دائرته الاجتماعية، فإن تأثيره يصيب بأكمله دائرة أفكاره.

وإنما يجب أن نلاحظ، كي نكون أكثر دقة وتحرياً، أن لدائرة الأفكار ذاتها إشعاعها الخاص تشع هي نفسها بإيحاءاتها على الدائرة الشخصية، التي تعكس بعض هذه الإيحاءات على الدائرة الاجتماعية التابعة لها (20).

وبعد الشرح المعمق لعلاقة الدوائر الثلاث ببعضها البعض، يعود مالك بن نبي إلى شرح خواص كل دائرة ومكوناتها فيقول:

• "أما الدائرة الشخصية: فإنها تتضمن بحكم الضرورة حياة الفرد الخاصة مع أسرته أو بمفرده.

• أما الدائرة الاجتماعية: فإنها تتضمن بالضرورة الجوار والعلاقات المهنية، والعلاقات الودية والعلاقات الناشئة عن الضرورة اليومية، مثل علاقتنا مع البائع الذي نشترى منه جريدتنا وخبزنا، والعلاقات التي تنشأ بمقتضى حاجة التسلية، إذا تعودنا الذهاب إلى مقهى، والعلاقات الأدبية إذ كان لنا صلات ببعض الطلبة.

هذه هي العناصر الأساسية للدائرتين.

فكيف تنتج الدائرتان، وهذا تركيبهما، إشعاع الحرمان والكف؟ وبعبارة أخرى كيف تعدان لإنتاج هذا الحرمان صناعياً، حتى توجه إلى دائرة الأفكار التابعة لها؟ فما تجب ملاحظته بالنسبة للدائرة الشخصية أن هناك ثلاث حالات ممكنة:

- أ. حالة تنتج فيها بطبيعتها الدوافع الهرمونية، بسبب تعفن في جوهرها.
- ب. وأخرى تنتج فيها تلك الدوافع بصفة طارئة، أعني بسبب ما يحقق فيها من التعفن بطريقة صناعية أو ما يلصق بصورتها الظاهرة على الأقل.
- ت. لا تنتج إطلاقاً إشعاعاً حرمانياً لأنها سليمة من طبيعتها من ناحية، ولم تنتج من ناحية أخرى محاولات تعفينها صناعياً أو تشويه مظهرها.
- أما بالنسبة للظاهرة الاجتماعية فهناك حالتان ممكنتان:

1. أنها لا تنتج انعكاسات الحرمان لأن ما تتضمنه من علاقات إنما هي علاقات سليمة في جوهرها.
2. أنها تشع انعكاسات الحرمان لأن علاقة على الأقل من العلاقات التي تشملها مشتبه بها⁽²¹⁾.

ويواصل مالك بن نبي شرحه لأسباب تقطع أو اصر العلاقات الاجتماعية في خضم هذا التداخل بين حياة الفرد الشخصية وحياته الاجتماعية وحياته الفكرية، هذه الأخيرة التي تفرض عليه حين تستقبل مجموعة من الأفكار الهرمونية والسلبية عن الدائرة الاجتماعية "فإنك سوف تجد نفسك مضطراً بطبيعة الأشياء إلى أن تحطم دائرتك الاجتماعية، حينما تشعر أنها أصبحت مركز إشعاع خطير موجه إلى أفكارك، إذ لم يبق أمامك إلا أن تفصل عنك كل العناصر التي تتركب منها تلك الدائرة أو تفصل أنت عنها⁽²²⁾.

وفي هذه اللحظة بالذات يصبح الفرد منعزلاً عن مجتمعه، يعيش لنفسه بعيداً عن الآخرين، بل يجد في الآخر مصدر ازعاج وقلق، فيفقد المجتمع قوته بفقدان الصلات والعلاقات الاجتماعية المتينة، التي هي بمثابة الجدار العازل الذي يصدّ كل ریح عاتية تهدد كيان المجتمع.

4- مشكلة الفوضى:

إن الثقافة في فكر مالك بن نبي عبارة عن تركيب يتكون من جزئيات، تتجانس هذه الجزئيات فيما بينها، مكونة الكل، فكلها كانت العناصر متوافقة قابلة للاندماج صاغت منها الحياة تركيباً، أما حين تكون متوزعة متضاربة فإنها تصبح تلفيقاً، أي مجرد فوضى. "والعالم الإسلامي اليوم خليط من بقايا موروثه عن عصر ما بعد الموحدين، وأجلاّب ثقافية حديثة جاء بها تيار الإصلاح، وتيار الحركة الحديثة، وهو خليط لم يصدر عن توجيه واع، أو تخطيط علمي، وإنما هو مجموعة التلفيق لعناصر من عصور مختلفة، ومن ثقافات متباينة دون أدنى رباط طبيعي ومنطقي يربط بينها"⁽²³⁾.

فإن أهم المشكلات الثقافية التي تتخبط فيها الأمة، تلك الفوضى التي تعترى كل ميادين الحياة، سواء الفكرية أو الاجتماعية أو السياسية، أو الاقتصادية أو حتى الأيدولوجية. "فشكل النهضة الإسلامية الراهن هو خليط من الأذواق، ومن المحاولات، ومن التذبذب ومن مواقف التدين أيضاً"⁽²⁴⁾.

والمفروض حسب مالك بن نبي أن أي مجتمع ناشئ يتهيأ للنهضة فلا بدّ له من عناصر تقليدية ورثها عن أجداده بجانب عناصر حديثة وهي عموماً مستعارة من مجتمعات أخرى، لكن يجدر بهذا المجتمع الناشئ أن يحلّل هذه العناصر ويكيفها بما يتوافق وشروط نهضته، لكن إذا استعار هذه الشروط كما هي وحاول تجسيدها في مجتمع لم تولد فيه، فإنها تصبح حينئذ مجرد تراكمات وفوضى لا نفع منها، بل بالعكس فهي تضرّ أكثر مما تنفع، وذلك راجع لظاهرة الاقتباس التي تفرض على المجتمع الناشئ إما لحاجته الملحة والضرورية وإما لأمر علوي يفرض عليه، هذا الاقتباس الذي لا يخضع لمقياس أو نقد، ينتج خيطاً من الفوضى في الميادين الفكرية والخلقية.

وهذا لا يعني أن مالك بن نبي كان ضد فكرة الاستفادة من تجارب الآخرين، بل نجده يصرح في الكثير من مؤلفاته بموقفه من هذه التجارب التي تحمل الغث والسمين، فهي دروس يجب الاستفادة منها، فمثلا في قوله: "هذه التجربة التي تعد درسا خطيرا لفهم مصائر الشعوب والحضارات، هي جد مفيدة لبناء الفكر الإسلامي، لأنها صادفت أعظم ما تصادفه عبقرية الإنسان من نجاح، وأخطر ما باءت به من إخفاق، وإدراك الأحداث من الوجهين كليهما ضرورة ملحة للعالم الإسلامي في وقفته الحالية، إذ هو يحاول ما وسعته المحاولة أن يفهم مشكلاته فهما واقعيًا، وأن يقوم أسباب نهضته كما يقوم أسباب فوضاه تقويما موضوعيا"⁽²⁵⁾.

فمالك بن نبي يشير إلى ضرورة تقويم هذه التجارب، والوقوف على أوجه النقص فيها ونقاط العظمة والقوة فيها أيضا، لتظفر الصفوة المسلمة إلى حد بعيد بمنوال تنتج عليه فكرها ونشاطها دون الذوبان في النموذج الغربي أو الوقوع في مشكلة الفوضى.

5- المفهومية:

ومن المشاكل التي يعاني منها المجتمع العربي الإسلامي، مشكلة المفهومية التي خصص لها مالك بن نبي محاضرة "ألقاها باللغة الفرنسية في الجزائر العاصمة في تاريخ: 1964/02/24 ونشرت كاملة بجريدة الشعب الفرنسية في فيفري سنة 1964م"⁽²⁶⁾. وقد اعتبر مالك بن نبي أن مشكلة المفهومية تعد بصورة عامة جزءا من ظاهرة القرن العشرين الذي تم تعميده عند ميلاده باسم قرن البخار.

لكن مجلة التاريخ التي لا تتوقف سرعان ما غيرت هذا التعميد على التوالي باسم قرن الكهرباء ثم الطاقة الذرية وأخيرا قرن الفضاء. وحسب مالك بن نبي هذه الحركة المتسارعة للتاريخ قد ولدت حربا ثالثة بعد الحرب العالمية الثانية وهي حرب المفهومية، فظهرت الديمقراطية والاشتراكية والسلام وأصبحت فوائح لجميع الدساتير الوطنية، وأصبحت هذه المفاهيم تشكل

مبادئ مفهومية عالمية، لكن حسب بن نبي هذه الثلاثية لم تتشكل وحدتها داخل العالم لأن العالم في نظره يحتوي على "المناطق البيضاء المنبثة هنا وهناك للبلدان التي توجد في حالة تقاعد بالنسبة إلى المعركة المفاهيمية، أعني البلدان المتغيبية فعلا على المأساة البشرية الكبرى لعصرنا"⁽²⁷⁾.

فهذه المناطق من العالم المتخلف حسب بن نبي لا يمكن أن تستفيد من هذه المفاهيم كوسائل للتقدم، أولا لأن مشكلة المفهومية "تثار على المستوى الوطني داخل كل بلاد فرضت فيها شروطها الخاصة ضمن طور معين من أطوار تاريخها، أنماط من العمل الجماعي... ودراسة هذا النشاط ترجع بنا على أي وجه إلى دراسة المقومات التي يقوم عليها تركيبها"⁽²⁸⁾.

فهذه المفاهيم لا بد لها من صامولة لتحريكها وتفعيلها داخل الفرد أولا ليتحقق هذا النشاط الجماعي.

"وفي هذه الآونة يوجد في الجزائر فراغ مفاهيمي في نفس الحد الذي لم يع فيه الشعب الجزائري بعد بما فيه الكفاية البواعث المعللة الجديدة لنشاطه المشترك"⁽²⁹⁾.

وهذا مشكل عويص يواجهه عجلة التقدم والتطور لأي بلد، فما بالك ببلد أنهكه الاستعمار ونهب خيراته أكثر من قرن من الزمان.

وقد أشار مالك بن نبي إلى الطريقة المثالية للقضاء على هذه المشكلة واستئصالها من جذورها. فالطريقة المثلى: "تمثل في تصفية راسب العسف المتخلف عن العهد الاستعماري، وجموع ضروب العطالة التي ندين بها إلى القابلية للاستعمار، وفي الاضطلاع بالبناء الاشتراكي وفي توجه البلاد صوب قبة منتمى جماعتها التاريخية المغربية والعربية والإسلامية."⁽³⁰⁾

كما بين مالك بن نبي وشدد على ضرورة أن تشرع الجزائر وباقي البلدان العربية بمعالجة هذه المشكلة لأن المشاكل حسبه تتضاعف وتتعدد بمرور الزمن عليها، فالمشكلة التي يمكن حلها الآن، قد تتعدد ويصعب الوصول إلى حلها بعد زمن، لأن آلياتها ستختلف والتداعيات المحيطة بها قد تتغير، مما يستوجب إيجاد حلول أخرى ووسائل أقوى.

خاتمة:

قدم مالك بن نبي في أكثر من ثلاثين عاما تحليلا دقيقا للواقع الإسلامي، يقوم على رؤية علمية موضوعية، محاولا الوقوف على أسباب المشكلة لا أعراضها للوصول إلى حلول تقضي على المشكلة من جذورها، وقد استفاد في ذلك من استقراء تاريخ المجتمعات الإنسانية، فتوصل إلى أن مشكلة العالم الإسلامي هي مشكلة حضارية، تستوجب حلاً حضارياً متكاملاً في شتى الميادين، لأنه لا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلة ما لم يرتفع بفكره إلى الأحداث الإنسانية، ويتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات وتهدمها.

ومن أهم المشاكل التي أعطاها مالك بن نبي حيزا واسعا في الكثير من مؤلفاته المشكل الثقافي، لأن مالك بن نبي رأى أن الثقافة هي التي تلعب الدور الرئيس في تشكيل الإنسان واعطائه هوية تميزه عن غيره من بني جنسه، وفي هذه الدائرة يصبح الفرد شخصا منتما للجماعة التي يستمد منها قوته وبقائه كما تأخذ هي بدورها منه قوتها وبقائها، أما إذا سبح في دائرة مفرغة من المشاكل الثقافية التي تؤدي به إلى الانزواء والتفوق فإنه يفقد قدرته على العطاء، ويبقى أي مجهود يقوم به خارج نطاق الجماعة مجهودا محدود الفاعلية في جميع الميادين.

الهوامش:

- ¹- عبد اللطيف عبادة: "صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي"، دار الشهاب، الجزائر، ط 1، 1983، ص 61.
- ²- مالك بن نبي: "مشكلة الثقافة"، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، القاهرة، ط 4، 1984، ص 50.
- ³- زكي نجيب محمود: "تجديد الفكر العربي، دار الشروق، القاهرة، (دط)، 1971، ص 12.
- ⁴- المرجع نفسه، ص 14.
- ⁵- مالك بن نبي: "مشكلة الثقافة"، مصدر سابق، ص 58.
- ⁶- ابن رجب البغدادي الحنبلي: "فضل علم السلف على الخلف"، مطبعة النهضة، القاهرة، (دط)، 1347، ص 30.
- ⁷- علي القرشي: "التغيير الاجتماعي عد مالك بن نبي"، الزهراء للإعلام، القاهرة، (دط)، 1986، ص 175.
- ⁸- مالك بن نبي: "مشكلة الثقافة"، مصدر سابق، ص 50.
- ⁹- مالك بن نبي: "ميلاد مجتمع"، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الانشاء، طرابلس، (دط)، 1974، ص 28.
- ¹⁰- أخرجه أبو داود في سننه (210/2) والرويان في مسنده (ج 2/134/25).
- ¹¹- مالك بن نبي: "ميلاد مجتمع"، مصدر سابق، ص 31.
- ¹²- المصدر نفسه، ص 82.
- ¹³- المصدر نفسه، ص 87.
- ¹⁴- المصدر نفسه، ص 89.
- ¹⁵- المصدر نفسه، ص 94.
- ¹⁶- المصدر نفسه، ص 99.
- ¹⁷- المصدر نفسه، ص 100.
- ¹⁸- المصدر نفسه، ص 115.
- ¹⁹- مالك بن نبي: "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة" دار الفكر، دمشق، ط 3، 1988، ص 77.
- ²⁰- المصدر السابق، ص 76، 78.
- ²¹- المصدر السابق، ص 84، 85.
- ²²- المصدر نفسه، ص 90.
- ²³- مالك بن نبي: "وجهة العالم الإسلامي"، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط 5، 1986، ص 77.
- ²⁴- المصدر نفسه، ص 78.
- ²⁵- المصدر السابق، ص 122.
- ²⁶- مالك بن نبي: "القضايا الكبرى"، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1991، ص 94.
- ²⁷- المصدر نفسه، ص 94.
- ²⁸- المصدر نفسه، ص 94.
- ²⁹- المصدر نفسه، ص 103.
- ³⁰- المصدر نفسه، ص 104.